الفصل الثامن

الزعامة الروحية
(الوسطاء - فئة الكجرة)

أولئك الذين يتولون الحياة الروحية وقد يجمعون في بعض المناطق بين السلطتين الروحية والدنيوية، وأياً كان الأمر فإن لهم صفة القداسة وربما هذا جعلهم يتمتعون بالسلطة المطلقة والتأثير البالغ في جماعاتهم، يتعاملون معهم من خلال الأحلام التنبؤية، والتي ترتبط أساساً بأحوالهم المعيشية (بالصحة والمرض والخير والقحط وسقوط الأمطار أو الجفاف والدمار، والنصر المؤزر على القبائل المعتدية)، فضلاً عن كشف قدراته الخاصة على الانحراف والجريمة ...إلخ. وسوف نحاول فيما يلي أن نعرض لتلك الزعامة من خلال الدراسة الحقلية التي قام بها الدكتور فاروق إسماعيل في مناطق جبال الأنقسنا وجبال تلشي وجبال كورنجو، وإن كان هذا لن يمنعنا من عرض المادة المتاحة وثيقة الصلة بالزعامة الروحية في مناطق أخرى. وتفيد المادة الأثنوغرافية في المجتمعات البدائية بأن الزعماء الروحيين لديهم القدرة على تطويع الأرواح الشريرة والقضاء على ما تسببه من أذى، بل والحيلولة دون وقوع الشر، إنهم يعتقدون أن لديهم القدرة على الاتصال المباشر بالآلهة أو بالأسلاف. ولعل هذا هو الذي دفع بعض الشعوب البدائية إلى اعتبار هؤلاء الوسطاء بمثابة الآلهة أو الرب الصغير. أو كما يقول جاك مندلسون في كتابه: «الأديان في إفريقيا المعاصرة» إن هؤلاء الوسطاء هم بمثابة القوى الأكثر قرباً من الإنسان وأكثر ملاحظة لأحوالهم، وبالتالي يمكنها أن تسبب متاعب أكثر من

الآلهة، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة في الأزمات[1] يقول تيه وهو إخباري من جبال تلشي:

«إن الإله موسلا لا حول له ولا قوة، إنه لا يفعل الشر بذاته، إن الأشرار هم السحرة، أو أولئك الذين يلحقون الضرر بالآخرين عن طريق العين الشريرة (سحر امرأة - حسد طفل - إفساد محصول - إصابة بقرة...). نحن لا نلجأ إلى موسلا، وإنما للكجور فهو وحده الذي يستطيع أن يقضي على السحر ويبطل مفعول الحسد، ويحقق نجاح المحصول ويعالج العقم... إن الكجور هو الذي يعرف موسلا».

ويقول أحد الأزواج في جبال كورنجو حين ترك زوجته التي فقدت النطق عند الكجور كاسوللي للعلاج إنه وحده الذي يستطيع معرفة حالتها، إنه يسأل موسلا.

من هذا القبيل أيضاً أن سكان جبال الأنقسنا يوجهون السباب إلى الإله «تل» ويتهمونه بالخداع والغدر لأنه أرسل شيطان الموت خلسة ليقتل ذلك الذي ينتمي إلى جماعتهم القرابية، في حين يلجؤون إلى زعيمهم الروحي «الكجور» ليدفع عنهم هذا البلاء، وهم يدركون أن بيده مصائر الناس وما يعتري حياتهم من تقلبات بين الخير والشر والقوة والضعف والصحة والمرض ...إلخ[2].

ويمكن القول إن هؤلاء الوسطاء أو الزعماء الروحيين يتميزون بخصائص في نظر تابعيهم، أو على الأقل يعتقد الناس أنهم منحوا امتيازاً إلهياً يتمثل أساساً في:

1- قدرتهم على الاتصال بالآلهة أو الكائنات الأعلى التي تسود الإنسان وتسيطر عليه.

2- قدرتهم الكامنة في الكشف عن نوايا الآلهة والأرواح الخيرة والشريرة.

3- تفويضهم من قبل الآلهة أو الكائنات الأسمى أو الأسلاف للقيام بالأعمال الطقسية والتكريم وتوجيه أفعال الناس لتحقيق أهداف معينة تتمثل في:

أ- تحقيق التجانس واستعادة العلاقات الودية بينهم وبين الإله من ناحية، أو بينهم وبين الأسلاف من ناحية أخرى.

ب- رفع الضرر أو الأذى عن تابعيهم.

---

[1] جاك مندلسون، الرب والله وجوجو، مرجع سابق، ص 42.

[2] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 90.

وسوف نعرض هنا لنظام الكجورية في جبال «تلشي» ***Tullishi*** ، ومن خلاله نستطيع إلقاء الضوء على الزعامة الروحية وخصائصها في مثل هذه المجتمعات التقليدية. إن التلشيين ومن بينهم سكان كارلنجا يسمون زعيمهم الأكبر كيورامانتا أو الكجور السلطان وتعني (سيد الرمح) ونفس هذه التسمية نجدها لدى جيرانهم من قبائل الدنكا ، إذ يسمون زعيمهم ***Banbith*** أي (زعيم الرمح أو الحربة). والكجور بصفة عامة يحظى باحترام كبير لما له من مكانه اجتماعية وتأثير بالغ سواء على المستوى الفردي أو الجمعي، وهو يجمع بين السلطتين السياسية والروحية ، ويعتبر شخصاً مقدساً ، وتمتد صفة القداسة هذه إلى ممتلكاته الخاصة ، وإن أبشع الجرائم هي التي ترتكب في حقه فلا يجب لمس ممتلكاته أو إتلاف زرعه ، فإذا ما ألحق أحدهم به ضرراً مقصوداً أو غير مقصود كأن يعتدي على أرضه أو حيوانه فيجب الإسراع والاعتراف له ، وأن يحضر الجاني عين الشيء الذي أتلفه سنوياً وفي نفس الميعاد طوال حياته إلى أن يعفو عنه ، وأن يكرس الجميع جهودهم من أجله ، يزرعون أرضه ويجمعون محصوله ويرممون بيته... ويعتبر مسكن الزعيم «السلطان» مقدساً ومن لاذ به كان آمناً مهما ارتكب من أفعال وجرائم حتى القتل! وله حق المنح والعطاء فإذا ما خلع شيئاً من ممتلكاته على أحدهم صار مقدساً لقدسيتها ، ولكن لا ينبغي على أحد أن يتطاول للحصول على شيء من هذه الممتلكات دون إذن منه ، لأنه لن يستطيع تحمل القوة المقدسة الكامنة فيها ومن ثم يلحق به الضرر والدمار. وإلى عهد قريب كان «كيورامانتا» هو الذي يعين الأربعة الآخرين كجور المطر وكجور الزراعة وكجور الحصاد وكجور الحرب ، وممتلكاتهم مقدسة أيضاً ، ولا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها ، والجدير بالذكر أن ثمة اعتقاد أن هؤلاء الكجرة لا ينبغي أن يقابل أحدهم الآخر طوال حياته ، وإذا حدث وتقابل اثنان منهما فإن أحدهما سوف يموت على الفور أثناء نفس العام ، ولذا نجد أماكن إقامتهم متطرفة ومتباعدة في أنحاء تلشي ، وحركتهم محدودة للغاية حتى لا يلتقي أحدهم بالآخر. والتلشيون لا يتذكرون الانحدار الجينالوجي لزعمائهم نظراً لانتمائهم لعشائر مختلفة ، والبعض يرى أنهم ينتمون لعشيرتين متباينتين وأنهما قد تناوبتا هذه الزعامة وليس هناك من تفسير لذلك ،

ويذكر لنا *Nadel* أسماء عشرة زعماء سابقين ينتمون إلى محليات مختلفة منها: *Latoto* و*Katte* و*Kawe* و*Kafuny* و*Tetdu* و*Katleng* ...إلخ. ويذهب إلى أنه على الرغم من أن الزعامة وراثية في خط الذكور، حيث تنتقل إلى أكبر الأبناء سناً باستثناء المريض أو الأبله أو المعتوه، إلا أنها اضطربت أخيراً بعد وفاة زعيمهم *Kafelesha* حين حاول *Bakelle* اغتصاب السلطة بمساعدة ناظر المسيرية، وأن هذا الأخير كان يجيد العربية وكان في وضع يسمح له باغتصاب الزعامة لأنه أحد اثنين ممن يسمون بصانعي الملوك *Abanyora* وعادة ما يتوليان مهمتهما بمجرد موت الزعيم، حيث يباشران السلطة بصفة مؤقتة حتى نهاية موسم الحصاد، وفي تلك الفترة فإنهما يتدارسان موضوع الزعامة، مع الأخذ في الحسبان سن الزعيم المرشح وحالته العقلية والصحية، ويذكر «نادل» أنهما إذا اتفقا على الاختيار[1] لأحد الزعماء يزورانه ليلاً حاملين بخسة مليئة بالرماد، وينثران الرماد عليه، ثم يصيحان في وجهه صيحات قوية أقرب إلى صوت الضباع، ولا يستطيع هذا المرشح أن يرفض عرض الزعامة خوفاً من التهديد السحري على حياته، وعادة ما يتخذ الزعيم المرشح من أخيه الأكبر مساعداً له للشؤون الطقسية، ويعتبر هذا الأخير بمثابة حامل الرمح المقدس، كما أنه يتولى بعد وفاة الزعيم مهمة خلع القرط الحديدي المقدس *Tygun* من أذن الزعيم المتوفى اليسرى قبل الإعلان عن وفاته. وعادة ما يتولى مساعدة الزعيم الجديد وضع القرط في أذن المرشح للزعامة وهكذا... كما أنه يتولى تسليمه عصا متشعبة من شجر «الأرادي» يوم تقلده منصبه. هنا يحتشد كل السكان لتحية الزعيم، النساء يحضرن أطفالهن حتى تباركهم روحه «كاتجن» وعادة ما يقابلهم بنثر الماء ليصبحوا أصحاء أقوياء. وفكرة القداسة لدى الزعيم (الكجور) تبدو في

---

[1] أما في جبال الأنقسنا وفي مناطق أخرى من السودان فليس ثمة اختيار للكجور على هذا النحو، إن الكجورية لديهم يمكن التنبؤ بها منذ الصغر على حد زعمهم. فإذا ما ولد طفل وكان لونه يميل للاحمرار ولم يتغير هذا اللون مع نموه الطبيعي فإن هذا يبشر بالكجورية، وعادة تنتابه آلام في مفاصله وقد يشعر بعدم القدرة على الرؤية ويقع في إغماءة. في هذه الحالة فإن أهله يستدعون له كجوراً أكبر ويعدون له المريسة ويخلطونها بالشطة ويكسرون بعض الأحجار إلى ذرات صغيرة تضاف للمريسة، حيث تسكب على عصا معينة ويمسح بها الكجور على مفاصل الطفل المريض. هنا قد يرى الصبي «مانجل» (الشيطان) ولكنه لا يتحدث معه، ومن ثم تنحر على أولئك الذين أتيحت لهم فرصة رؤية «منجل»، وأشهر هؤلاء الكجرة في المنطقة «سقد» و«جكمان» و«جبردار باو» و«سامانج».

أوضح صورها في اعتقادهم بأن ثمة قوى خفية سرية تسيطر عليه وتزوده بالأحلام التنبؤية، والتي يقدم في أعقابها القرابين للإله «موسلا» ثوراً أو بقرة، وعادة ما تعلق جماجمها على أعمدة البيت خاصة فيما مضى، ويقترب الناس من مسكنه في حذر بالغ، فلا ينبغي أن يزعجه أحد فلربما كان نائماً وروحه هائمة هنا أو هناك، ومن ثم فإن إيقاظه فجأة قد يجعلها تفشل في العودة إلى جسده وقد يموت. ويجب على الزعيم ألا يأكل لحم الخنزير أو الكلاب، كما يحرم عليه أكل اللحوم أو شرب الخمر مع الغرباء من عشيرته. ويمكن القول إن شخصية الزعيم الكجور كانت إلى عهد قريب تتمتع بالسلطة المطلقة والتأثير البالغ لما لها من قداسة، وبالتالي الخوف في حالة العصيان أو المعارضة لما يراه، أي أن زعامته في قدسية خاصة فيما مضى، حيث كان يمدهم من خلال أحلامه التنبؤية بالنصر المؤزر مع القبائل الأخرى كما أنه يستطيع أن يضع حداً للعدوان والثأر. ومن هنا نجد أن دور الزعيم يمثل حائلاً دون استفحال الصراع ومحققاً للعدالة، وإن كان التلشيون يستغيثون به دوماً وبقدرته التنبؤية لاكتشاف السرقات وجرائم القتل ومدى ارتكاب الآثمين لذنوبهم ويلعب الرمح المقدس دوراً حيوياً، إذ إن من يقسم عليه حانثاً سوف يموت لا محالة.

هذا فيما يتعلق بالكجور الزعيم فإذا انتقلنا إلى الكجرة الآخرين، لوجدنا في مقدمتهم «كجور المطر» أو ما يسمونه بالمحلية (كيورامامي) وتنحصر مهمته في عملية إسقاط المطر، ومن الطريف أنه إذا فشل في إسقاط المطر توجب معاقبته أو تعذيبه ولا يطلق سراحه إلا بعد سقوط المطر، على الرغم مما لديهم من أفكار عن قداسته وقدرته على الاتصال بالإله موسللي.

أما «كجور الزراعة» فإنه يختص بالممارسات والطقوس التي تستهدف وفرة الإنتاج الزراعي. وكجور الحصاد الذي يوجه التشليين عند الاحتفال بموسم الحصاد، كما يشرف على القرابين التي تقدم بهذه المناسبة. أما كجور الحرب والدم فهو يتولى الطقوس والممارسات التي من شأنها تحقيق النصر لتابعيه والهزيمة لأعدائه، ويقوم كجور الحرب عند الدنكا في جنوب السودان بدهن أرجل المحاربين من عند الركبة باللبن والزبد متوسلاً للآلهة أن تهدئ من روعهم وتنزل

السكينة على قلوبهم، وأن تمنحهم الشجاعة ليحققوا النصر على أعدائهم فإذا ما أتم الكجور *Beyn* ذلك دهن نفسه بالزيت ونثر بعض التراب على رأسه وجلس في الشمس المتوهجة بقية اليوم صائماً عن الطعام مصلّياً لنجاح جنوده وهم على قناعة بالغة من أن الكائن الأعلى سيقف إلى جانبهم في الأوقات العصيبة.

بيد أن هناك جماعة أخرى من كبار السن «كتيا كنالافت»، أولئك الذين يناط بهم فض النزاع والفصل في الخصومات، إنهم بمثابة حلقة الاتصال بين الأطراف المتنازعة والمشايخ والوكلاء، إذ يستهدفون دوماً اقتراح أسس للصلح بقصد الوصول إلى نوع من التسوية أو التعويض سواء بين أولئك الذين ينتمون إلى مجتمعهم المحلي كارلنجا أو المجتمعات الأخرى مثل شقاوة ورأس الفيل ...إلخ. ومما تجدر الإشارة إليه أن هؤلاء الأجاويد يستمدون زعامتهم من صفاتهم الشخصية وبالتالي من إقرار الجماعة لهذه الصفات، ومن هنا جاء تأثيرهم في حياة الجماعة سواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

فضلاً عن كجور العلاج أو الكاهن الطبيب. ويضطلع أساساً بمهمة الاستشفاء ويدّعي بعضهم أن له صلة بالعالم الخفي وقدرة على التنبؤ بالأحداث، وفي جبال الأنقسنا يرتدي البعض منهم فروة من جلد الغنم ليستر بها نصفه الأسفل وتسمى «ديريما» ويربط قطعة من القماش من أعلاها ويترك نصفه الأعلى عارياً كما يضع على رأسه «مارساً» من دائرة الحبال أو من جلد قرد صغير يعقد من الخلف. ويحمل في يده جراباً من جلد القط البري (إي) ويضع فيه العروق وقد يمسك عصا خاصة ذات لون أحمر يسمونها (كزي) تتدلى منها بعض التمائم.

هذا والكجور أو الكاهن يأخذ دور الطبيب أو الساحر أو العراف أو المشعوذ *wizard* إن صحت هذه التسمية. إن لديه القدرة لتحضير الأرواح والقوى الخارقة، فضلاً عن إعداده للأدوية من الأعشاب المقدسة والتعاويذ لكل شيء.

ولا يختلف الأمر كثيراً عما نجده لدى قبيلة *AmaQwathi* في منطقة *Transkei* في جمهورية جنوب إفريقيا التي درستها *J. Broster* حين تتحدث عن الكاهن أو الطبيب الساحر في ديانة الـ *Qaba* تقول إنه يستطيع أن يتحدث إلى أرواح الأسلاف *Ancestral Spirits*، وينقل رسائلهم للناس ويركز على الشعائر

لتكريمهم. وإن لديهم ثلاثة أنواع من الأطباء السحرة: الأول ويسمونه بالمحلية *Gqira* والثاني *Gqwira* والثالث *Xhmele*، ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار الأول والثاني بمثابة العراف *diviner* الذي يصنع ويعد الأعشاب، أما الثالث فيمكن اعتباره ساحراً يمارس الممارسات السحرية الصرفة، وجميعهم لديهم القوة لتحضير القوى الخارقة... إنهم يتعاملون مع الآلهة والقوى الخارقة والوسيطة تماماً كما يتعاملون مع الأدوية العشبية والتعاويذ.. لديهم أدوية لكل شيء[1].

ويرى كاسوللي أو كجور الطب أن هناك ثلاثة أنواع من الأمراض:

1- أمراض بسيطة مثل البرد والصداع وآلام الجسم الأخرى كالكسور والآلام الناتجة عن الالتهابات الجلدية أو الجرب، وهي أمراض يجدون في الغطاء النباتي ما يفي باحتياجاتهم لعلاجها، فإذا لم يستطع الأهالي وضع حد لآلامهم لجؤوا إلى كاسوللي والذي يزعم أنه يستعين بنوع من الأعشاب المقدسة التي تحقق لهم الشفاء.

2- حالات الولادة والعقم ويبرر كاسوللي ذلك بوجود نوع من اللحمية «دمو» لا بد من استخراجها، ويزعم أنه يستطيع ذلك ويدفنها في الأرض بعد أن يجد لها حفرة خاصة بالكوكاب، ويسود الاعتقاد أن عدم دفن «الدمو» يؤدي إلى انتشار المرض، وعادة ما يحاول أن يعتصر بطن المرأة العاقر بيده مراراً وقد حمل بيده الأخرى «بخسة» بها بعض الماء يسمونها «كوردو» ويزعم أنه يعثر على أشياء إذا رفعها زال العقم. يقول «كرقي تيه» من جبال كورنجو عن كاسوللي إنه ينقذ النساء من الموت في حالة الولادة، ويذهب كجور الطب إلى أن له خبرة بالعلاج النفسي ويسمونه بالمحلية «مندیا» وقد رأيت في بيته امرأة في نحو الثلاثين من عمرها فقدت النطق وتعتريها أعراض تتمثل في ارتفاع وانخفاض درجة الحرارة وقد أرسلها زوجها والذي يعمل جندياً في عاصمة الإقليم إلى المستشفى مراراً دون جدوى، ثم بعث بها أخيراً إلى كاسوللي، وعندما فحصها هذا الأخير أمر بأن تمكث المرأة عنده ليعالجها بالماء نهاراً والدعاء ليلاً مبرراً حالتها بأن ثمة أرواح شريرة قد تقمصتها وحالت دون نطقها وسببت لها حالة الوهن والضعف التي وصلت إليها. وفي

---

[1] Joan A. Broster: Red Blanket Valley, Hugh Keartland Publishers, Denver, Johannesburg 1967, pp. 46-47.

مثل هذه الحالات فإن كاسوللي يرقد على حد زعمه في بيت الأسلاف يسأل «موسلا» الرأي والمشورة. وعادة ما تأتي الإجابة عن طريق الرؤى والأحلام، ومن ثم يضع خطة العلاج، وقد يقتضي الأمر الاتصال بالأرواح الشريرة لإقناعها بأن تترك جسم المريض، كما يمكن أيضاً عن طريق هذه الأحلام التنبؤية معرفة الحاسد أو الساحر، إلا أنه لا يخبر المريض خشية أن يحتدم النزاع بين الطرفين. وفي حالات كثيرة يفشل الكجور في تحقيق الشفاء لمرضاه، ولا يجد لذلك تبريراً سوى أن الإله «موسلا» لا يريد الشفاء، ومن الطريف أن كجور الطب كاسوللي حين قام بزيارتي[1] رداً على زياراتي المتعددة سألني عن أدوية للملاريا وآلام المعدة وقد أعطيته بعضاً منها فشكرني ممتناً ولما سألته ألا تعالج مثل هذه الحالات أجاب بأن طريقته تحتاج إلى وقت طويل.

وبعد فنحن بصدد نوع من الزعامة الروحية المقدسة التي يعتقدون فيها ككائنات وسيطة أن لديهم القدرة على معرفة كل شيء عن الكون، خيره وشره، يستطيعون الاتصال بالآلهة والأرواح الخيرة والشريرة وأرواح الأسلاف، لديهم القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وإزالة آلام البشر وما يلحق بهم من محن ومصائب. بل ويمتد دورهم ليس فقط إلى الأحياء، وإنما إلى عالم الموتى أو الأسلاف، وقد تفشل محاولات هؤلاء الزعماء، إلا أن الوثنيين يرفضون إدراك فشلهم هذا، وإنما يبررون ذلك بأن الآلهة أو القوى الخارقة أو أرواح الأسلاف ترفض هذا الاسترضاء أو محاولة استعادة العلاقة الودية بينهم وبين تابعيهم، إنهم دوماً في حاجة إلى المزيد من الصلوات والقرابين. وفي الحقيقة إن مجال البحث عن النزعة الروحية في المجتمعات البدائية ما زال يحتاج إلى كثير من الجهد والمعاناة فهو على درجة عالية من التعقيد لارتباطه بالبناء الاجتماعي ككل وما يحويه من علاقات، فضلاً عن ارتباط ذلك كله بمفاهيم عن الألوهية والقوى الخارقة والموت والأسلاف والقداسة والأرواح الخيرة والشريرة إلى غير ذلك، الأمر الذي يستدعي القيام بالعديد من الدراسات الحقلية لسبر غور هذه الموضوعات[2].

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 100-101.

[2] المرجع نفسه، ص 102.